د. محمد عمارة

الخطاب الدينى

بين التجديد الإسلامى والتبديد الأمريكانى



الخطاب الديني

بين

التجديد الإسلامي... والتبديد الأمريكاني

الطبعـــة الثانية

١٤٢٨ هـ ــ مايو ٢٠٠٧ م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٩ - ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

د. محمد عمارة

الخطاب الدينى

بين
التجديد الإسلامى... والتبديد الأمريكانى


مكتبة الشروق الدولية



تقديم

منذ إعلان الإدارة الأمريكية، الممثلة «للمحافظين الجدد» المتحالفين مع «المسيحية الصهيونية» و«اللوبي الصهيوني» منذ إعلانها الحرب على الإسلام - الذى سمته «إرهابًا» - وعلى أمته وعالمه، عقب «قارعة» ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م . . كانت جبهة «الخطاب الدينى الإسلامى» فى المساجد . . والمدارس . . والفكر . . والثقافة . . والإعلام . . واحدة من الجبهات الرئيسية لهذه الحرب المعلنة على الإسلام.

وغير ما كتبه الأمريكيون عن ضرورة «تغيير» الخطاب الدينى الإسلامى . . وغير «الضغوط» و«الطلبات» و«الأوامر» التى مارستها الإدارة الأمريكية على الحكومات الإسلامية، و«الاعتمادات الدولارية» التى رصدت لهذا «التغيير» للخطاب الدينى الإسلامى - والتى استجابت وخضعت لها الكثير من الحكومات - غير هذا «الفعل الأمريكى المباشر»، وجدنا العديد مما يسمى «بمنظمات المجتمع المدنى»، فى بلادنا، التى يمولها الغرب، والتى تقوم أساسًا على جهود عشرات من المثقفين الماركسيين والمتمركسين والحداثيين المتغربين . . وجدنا هذه المنظمات قد انخرطت فى معركة كبرى تحت شعار تجديد الخطاب الدينى - والإسلامى منه فقط، دون سواه!

وإذا كانت الخبرة الشعبية، قد صاغت ـ منذ الحروب الصليبية ـ تلك الحكمة التى تقول: «من يأكل عيش الخواجه يضرب بسيفه»! . . فلقد كان طبيعيًا لهذه «المنظمات» والمؤتمرات التى تمولها أمريكا والغرب، أن تكون «صوت سيدها»، فتعلن، هى الأخرى، الحرب على الخطاب الدينى الإسلامى، مهيلة عليه التراب، وداعية ليس إلى مجرد «تجديده» و«تطويره»، وإنما إلى «تغييره» وأحيانًا «إلغائه» بالعلمانية تارة، و«بتاريخية نصوصه المقدسة» تارة أخرى، بل وبالزندقة التى تجرح المقدسات والثوابت الإسلامية فى بعض الأحايين.

* * *

مقدمات ثلاث

ولأن قضية تجديد الخطاب الديني قضية مركبة، بل ومعقدة، وفي الحديث عنها ما هو طيب وضروري ومشروع. وما هو خبيث ومغلوط ومرفوض.. كان ضرورياً أن نقدم بين يدي «فصل المقال» فيها، عدداً من المقدمات:

المقدمة الأولى: أن التجديد في الفكر الإسلامي ولهذا الفكر الإسلامي، ليس مجرد أمر مشروع وجائز ومقبول، وليس مجرد حق من حقوق العقل المسلم على أهل الذكر والاختصاص من علماء الإسلام.. وإنما هو سنة وضرورة وقانون، وبدون التجديد - الدائم والمستمر - للفكر والفقه والخطاب الإسلامي، تحدث الفجوة بين الشريعة الإسلامية - التي هي وضع إلهي ثابت - وبين مقتضيات ومتطلبات الواقع - المتغير والمتطور دائماً وأبداً - الأمر الذي لو ساد الجمود والتقليد - في الفكر والفقه والخطاب الإسلامي - يفضي إلى «انفلات» الواقع المتطور من حاكمية الشريعة الثابتة، فيكون العجز عن أن تظل هذه الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، فتغيب حجة الله على عباده، وهدايته لخلقه، بعد أن خُتمت الشرائع السماوية بشريعة الإسلام.. فكون هذه الشريعة الإسلامية هي خاتمة شرائع السماء

إلى الإنسان، وصلاحيتها لكل زمان ومكان، مرهونان بالتجديد الدائم فى الفكر والفقة والخطاب الإسلامى، لمواكبة مقتضيات ومتطلبات مستجدات الواقع، المتطور دائمًا وأبدًا، ولبقاء حجة الله على عباده قائمة إلى يوم الدين.

ولهذه الحقيقة، قال رسول الله ﷺ: **«يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»** ـ رواه أبو داود ـ.. ولهذه الحقيقة، تبلور فى التراث الإسلامى «فن» من فنون التأليف حول «المجددون فى الإسلام»، كتب فيه القدماء وألّف فيه المحدثون.

بل لقد اتفق جمهور العلماء على أن التجديد لا يقف فقط عند «الفقه» ـ الذى هو علم الفروع ـ وخاصة فى المعاملات ـ وبالدرجة الأولى فى «فقه الواقع» المتطور، وفى «تنزيل الأحكام» على هذا الواقع المتطور، ومن ثم فى «الخطاب المتجدد»، والمعبر عن هذا الفقه المتجدد.. وإنما اتفقوا ـ أيضًا ـ على أن هناك نوعًا متميزًا من التجديد تحتاج إليه «الأصول»، ليس فقط أصول الفقه، وإنما حتى «أصول الإيمان»!.. ذلك أن البدع والخرافات، والزيادات والنواقص، قد تعدو على هذه «الأصول»، فتطمس حقائقها، وتحجب فعاليتها، وهنا تحتاج هذه الأصول إلى التجديد الذى يزيل عنها ركام البدع والخرافات، لتعود إلى جوهرها الحقيقى، وفاعليتها الأولى.. وذلك مثل «السيف»، إذا علاه الصدأ، فشل فاعليته، فإن تجديده لا يعنى تغييره، بل ولا تطويره، وإنما يعنى إزالة الصدأ عنه ليعود إلى مضائه وفاعليته الأصلية من جديد.. فحتى فى «الأصول» هناك هذا اللون

من التجديد . . ولقد أشار إليه الحديث النبوى الشريف الذى خاطب به رسول الله ﷺ الصحابة ـ والأمة ـ عندما قال :

ـ «**جددوا إيمانكم**» . .

ـ فلما قالوا : يا رسول الله ، كيف نجدد إيماننا؟

ـ قال صلى الله عليه وسلم : «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**» ـ رواه الإمام أحمد .

ففى شهادة التوحيد ، رفض لكل الطواغيت التى يعظمها الناس ويعبدونها من دون الله ـ من الشهوات . . إلى الأثرة فى المال إلى الطغيان والاستبداد . . إلخ ـ فإحياء عقيدة التوحيد ، التى هى ثورة تحرير للإنسان من قيود هذه الطواغيت ، هو لون من «التجديد» المطلوب حتى لأصول الإيمان فى الإسلام .

هذا عن مبدأ التجديد للفكر والفقه والخطاب الدينى للإسلام .

والمقدمة الثانية : أن المسلمين ، منذ الاحتكاك العنيف بينهم وبين الغزوة الاستعمارية فى العصر الحديث ـ منذ غزوة «بونابارت» (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م) أواخر القرن الثامن عشر الميلاد ـ قد استجد لديهم «باعث جديد» على التجديد لخطابهم الدينى ولفقههم للواقع وللأحكام . . ذلك أن هذه الغزوة الغربية الحديثة ، لم تكن كسابقتها الصليبية (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) مجرد غزوة سيف وعنف وعضلات وقتال واحتلال للأرض ونهب للثروات ، وإنما زادت على ذلك كله وتميزت بالفكر الذى جاء ليحتل العقل أيضًا ، كى يتأبد احتلال الأرض ونهب الثروات . . لقد جاءت هذه الغزوة بالفكر والكتاب والمطبعة

والصحيفة والمنشور و«الأيديولوجيا» مع المدفع والبارود.. لأنها كانت ثمرة للنهضة الأوروبية الحديثة، وللثورة الصناعية، وللفلسفة الوضعية والعلمانية واللادينية و«الدين الطبيعي» ـ دين الحداثة ـ والتي هي الثمرات الفكرية لفلسفة التنوير الوضعي العلماني الغربي.

وأما هذا «الغزو الفكري»، الذي جاء في ركاب «الغزو العسكري»، وجد علماء مدرسة الإحياء والتجديد واليقظة الإسلامية ـ من حسن العطار (١١٨٠ ـ ١٢٥٠هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥م) إلى جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م)، ومحمد عبده (١٢٦٥ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م)، ورشيد رضا (١٢٧٢ ـ ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م)، ومحمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥م)، ومصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ ـ ١٣٦٦ هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م)، وعبد المجيد سليم (١٢٩٩ ـ ١٣٧٤هـ ١٨٨٢ ـ ١٩٥٤م)، ومحمد الخضر حسين (١٢٩٣ـ ١٣٧٧هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨م)، ومحمود شلتوت (١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ ١٨٩٣ ـ ١٩٦٣م)، ومحمد عبد الله دراز (١٣١٢ ـ ١٣٧٧هـ ١٨٩٤ ـ ١٩٥٨م) وحتى الشيخ محمد الغزالي (١٣٣٥ ـ ١٤١٦ هـ ١٩١٧ ـ ١٩٩٦م).. وعشرات غيرهم من أعلام التجديد ـ وجد علماء هذه المدرسة أن تجديد الفكر والفقه والخطاب الإسلامي، أصبح أكثر ضرورة وأشد إلحاحًا؛ لأنه هو السبيل لتقديم «البديل الإسلامي»، الصالح لتلبية احتياجات ومتطلبات مستجدات الواقع الجديد، وذلك حتى يمتلئ الفضاء الإسلامي بالبديل الإسلامي، فيزول «الفراغ» الذي صنعه الجمود والتقليد، والذي يسعى التغريب الوضعي العلماني لملئه والتمدد فيه:

ولهذه الحقيقة ـ حقيقة مستجدات دواعي وضرورات التجديد ـ أعلن الشيخ حسن العطار ـ عندما احتك بعلماء الحملة الفرنسية ـ : «إن بلادنا لا بد أن تتغير ، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها» . . ودعا الشيخ رفاعة الطهطاوي ـ بعد أن خبر خطر الوضعية اللادينية الغربية في باريس ـ إلى تجديد فقه المعاملات الإسلامية ، ليسدّ الباب ويقطع الطريق ـ بالبديل الإسلامي المتجدد ـ على قانون نابليون ـ الوضعي العلماني المتسلل إلى دوائر التجارة ومؤسسات الحكم والقضاء والتشريع في عالم الإسلام ـ . . ونهض تلميذه محمد قدري باشا (١٢٣٧ ـ ١٣٠٦هـ ١٨٢١ ـ ١٨٨٨م) بتقنين فقه المذهب الحنفي ، لتحقيق ذات الغرض ـ ملء الفراغ القانوني بتجديد الفقه الإسلامي وتقنينه ـ . . بل وكان تقنين الدولة العثمانية لفقه المذهب الحنفي ـ في (مجلة الأحكام العدلية) سنة ١٨٦٩م ـ جهداً كبيراً يصب في ذات الوعاء . . وعاء التجديد للفقه والفكر والخطاب الإسلامي ، لملء الفضاء الإسلامي بالبديل الحضاري ، حتى لا يملأ التغريب هذا الفضاء .

ولهذه الحقيقة ، كانت الحرب الفكرية التي خاضتها مدرسة الإحياء والتجديد ـ في مصر والعالم الإسلامي ـ هي حرباً على جبهتين :

* جبهة الجمود والتقليد ، التي قال الإمام محمد عبده عن أهلها : «إنهم وإن أنكروا كثيراً من البدع ، ونحّوا عن الدين كثيراً مما ليس منه ، فإنهم يرون وجوب الأخذ بما يُفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها مُنحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء»[1]

* وجبهة التغريب والتقليد للنموذج الغربي : التى قال جمال الدين الأفغانى عن أهلها : «إن المقلدين لتمَدّن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها . . فالتمدّن الغربى هو ، فى الحقيقة ، تمدّن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى . . ولقد علمتنا التجارب ، أن المقلدين من كل أمة ، المتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . . وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون لهم الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم»[٢] .

ولأن هذه هى حقيقة «الإنجازات التجديدية» التى شهدها الخطاب الدينى الإسلامى فى العصر الحديث ، فلقد انتقل هذا الخطاب نقلات نوعية وكيفية عن صورته التى كان عليها إبان حقبة التراجع الحضارى ، على عهد المماليك والعثمانيين . . والذين يقرأون فكر وفقه وخطاب آلاف الكتب التى أبدعها المئات من علماء مدرسة الإحياء والتجديد يدركون كيف أن الخطاب الدينى الإسلامى المعاصر قد أصبحت لديه «عقلانية مؤمنة» ، متميزة عن «الجمود الحرفى عند ظواهر النصوص» وعن العقلانية الوضعية اللادينية الغربية ، التى تؤول الدين ، فتجعله «دينًا طبيعيًا» وإفرازًا بشريًا ، لا علاقة له بالدين الإلهى ، الذى جاء به نبأ السماء العظيم . . كما أصبح لدينا «فقه جديد» يحاول فقه الواقع المعيش ، فى مختلف ميادين المعاملات الإنسانية . . وفكر جديد . . وخطاب جديد لإنسان العصر الحديث .

والذى يشهد على صدق هذه الحقيقة ـ حقيقة تجدد الفكر والفقه والخطاب الإسلامى فى عصرنا الحديث ، واستمرارية هذا التجديد

في واقعنا المعاصر ـ هو انحسار حجم مدرسة الجمود والتقليد، التي ينفر أصحابها من العقل والعقلانية، ومن التمدن والتحضر والتجدد والتطور.. فبعد تمددها في فضاءات حقبتي المماليك والعثمانيين، أصبح تعداد جمهورها في واقعنا المعاصر لا يتعدى عدة ملايين، من مليار ونصف المليار، هم التعداد الحالي لأمة الإسلام.. وما علو صوت «ناقوس» الجمود والتقليد، إلا لسبب جانبي مصنوع وموقوت، وهو الإمكانات المالية النفطية، التي قذفت «بفكر» هذه المدرسة خارج محضنها الصحراوي العتيد!..

والمقدمة الثالثة: ـ التي نقدم بها بين يدي دراسة الخطاب الديني ـ هي أن هذا الخطاب الديني، في أية أمة من الأمم وحضارة من الحضارات ودين من الأديان وثقافة من الثقافات، يستحيل أن يكون خطابًا واحدًا، وإنما هو ـ دائمًا وأبداً ـ عدد من الخطابات.. حدث هذا حتى في الفضاءات الفكرية التي عرفت السلطة الدينية المتفردة، والكهانة المتحكمة.. ففي ظل البابوية الكاثوليكية، لم تخل الساحات من تنوع في الخطاب الديني الكاثوليكي.. ووجود «لاهوت التحرير» ـ الذي بدأ في أمريكا اللاتينية ـ شاهد على أن كهانة البابوية الكاثوليكية لم تمنع التنوع في الخطاب الديني الكاثوليكي، وكذلك الحال في الكهانات المسيحية الأخرى ـ في الأرثوذكسية.. والبروتستانتية ـ وكذلك الحال ـ أيضًا ـ في ظل الكهانة اليهودية، حيث نجد اليهودية الأرثوذكسية.. والإصلاحية.. وغيرهما.. بل ونجد ذات التنوع في الخطاب الديني داخل الفضاء الشيعي، رغم كهانة نظرية الإمامة، والسلطان الديني لنواب الإمام المعصوم.. فهناك المراجع

التقدمية.. والإصلاحية.. والمحافظة.. والإخبارية.. التى يتنوع خطابها الدينى فى هذا الفضاء.. كما أن هناك فروقًا واضحة بين خطاب «الحوزات» وخطاب «الجامعات»، والخطاب الجامع بين الحوزات والجامعات..

وهذه الحقيقة ـ حقيقة تنوع وتعدد الخطاب الدينى ـ نجدها أكثر بروزًا وتجسدًا فى فضاء الإسلام السُّنى، حيث لا بابوية ولا كهانة ولا عصمة لعالم دين ولا لمؤسسة من مؤسسات العلم الدينى.. فالعصمة فقط للأمة.. والفتوى غير ملزمة.. واجتهاد المجتهد غير ملزم للمجتهد الآخر.

والناظر ـ حتى ببادئ الرأى ـ فى الواقع الفكرى فى فضاء الإسلام السُّنى، الذى يمثل ٩٠٪ من عالم الإسلام وأمته، يجد:

١ ـ خطاب الوسطية الإسلامية.. الذى تمثله ـ فى علم أصول الدين ـ علم الكلام ـ «الأشعرية» و«الماتريدية»، وفى الفكر الحديث والمعاصر مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى.. وفى مؤسسات العلم الإسلامى الأزهر الشريف، والجامعات الإسلامية التى احتضنت وتحتضن كل تراث الأمة، دون تعصب لمذهب أو فرقة، والتى تستلهم من التراث ـ كل تراث السلف والخلف جميعًا ـ ما هو صالح للإجابة على علامات استفهام الواقع المعيش.

وهذا الخطاب الوسطى، يتميز ـ فى «نظرية المعرفة» باعتماد كل من الوحى ـ كتاب الله المسطور ـ والكون وعالم الشهادة ـ سنن الله فى الأنفس والآفاق ـ كتاب الله المنظور ـ اعتماد هذين المصدرين والكتابين مصدرًا للعلم والمعرفة، والقراءة لهما وفيهما معًا..

والاعتماد ـ فى «سبل المعرفة» وآلياتها وطرائقها ـ على كل من: «العقل» و«النقل» و«التجربة» و«الوجدان»، لتصبح الثقافة الإسلامية، والخطاب الإسلامى مزيجًا من ثمرات هذه المصادر والآليات والروافد جميعًا.. ففى هذا الخطاب يرقق القلب والوجدان الحسابات المجردة للعقول كى ينقذها من الجفاف، وتضبط الحسابات العقلية وتوقظ خطرات القلوب وإلهاماتها كى لا تتحول إلى شطحات.. وينقذ النور القلبى والنظر العقلى النص والنقل الدينى من الحرفية والجمود، ويسهم كل ذلك فى خلق فلسفة إيمانية لتطبيقات حقائق وقوانين علوم «التجربة والحواس» ـ العلوم الطبيعية والمادية ـ لتكون هى الأخرى علومًا مؤمنة، يصبح علماؤها هم الأكثر خشية لله ـ سبحانه وتعالى ـ خالق المادة التى فيها يبحثون، والعقل والحواس التى بها يكتشفون الأسرار التى أودعها، سبحانه، فى مادة هذه العلوم.. فيصبح العلم المادى، فى هذا الخطاب الوسطى، سبيلاً لتعميق الإيمان الدينى، والعقلانية المؤمنة.. وليس ـ كما حدث في الغرب ـ الذى وقف فى مصادر المعرفة عند الواقع المادي وحده، وفي سبل المعرفة عند العقل والتجربة وحدهما ـ سبيلاً لإحلال العلم محل الدين، وجعل الدين «طبيعيًا»، لا إلهيًا، حتى صاح بعض فلاسفة الحداثة الغربية تلك الصيحة المنكرة: «لقد مات الله»! ـ عليهم لعنة الله!..

هذه هى معالم خطاب الوسطية الإسلامية، الجامعة والمتجدد.. خطاب الهدايات الأربع: العقل.. والنقل.. والتجربة.. والوجدان.. كما كان يسميها الإمام محمد عبده، وهذا الخطاب الوسطى هو أوسع الخطابات ذيوعًا وانتشارًا فى عالم الإسلام.

٢ ـ وثاني ألوان الخطابات الدينية الإسلامية، هو الخطاب الصوفي، الذي يركز أكثر وأكثر على خطرات الوجدان، وعلم القلوب، والإلهامات والفيوضات التي تثمرها المجاهدات الروحية.. وهو خطاب له أهله، العارفون بمقاماته وأحواله.. الذين يمثلون ـ في هذه الأرض ـ ما يمثله الملح للطعام: ضرورة لا غناء عنها.. لكنها لا تكفي وحدها!

وهناك، في داخل هذا الخطاب الصوفي، ألوان من التنوع والتعدد، حسب درجات المقامات والأحوال.. ووفق درجات الالتزام بأحكام الشريعة ومنطقها.. وهو ـ بالطبع ـ مغاير لما في كثير من «الطرق» الصوفية من بدع وخرافات لا علاقة لها أصلاً بأي أصل من أصول الإسلام، ولا قبول لها بأي معيار من معايير عقلانية الإسلام.

٣ ـ وثالث هذه الخطابات الدينية، في الفكر الإسلامي المعاصر، هو الخطاب النصوصي، الذي ينفر أصحابه من النظر العقلي، فيقفون فقط عند حرفية ظواهر النصوص، دون إعمال للعقل في مقاصد هذه النصوص.. وإذا كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م) قد قال عن إمام هذا اللون من الفقه والفكر والخطاب وهو الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م) ـ: «**إنه لم يكن ممعنًا في النظر العقلي**»[٣].. فإن الإمام أحمد يؤكد على «واحدية» النص ـ تقريبًا ـ وليس فقط «أولويته» في فقه الدين والاستدلال على الأحكام.. فمنهاجه في هذا الميدان هو الوقوف عند النص وحده ـ والنص بالمعنى العام ـ أي

العبارة - وليس بمعنى ما هو قطعي الدلالة والثبوت، الذى لا يحتمل إلا معنى واحداً - كما هو معناه عند الأصوليين - يؤكد الإمام أحمد على انحيازه الكامل إلى هذا المنهاج النصوصي، عندما يحدد أصول منهجه التى نقلها عنه الإمام السلفي ابن القيم (٦٩١ - ٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠م) فقال : إنها خمسة :

* الأصل الأول : النصوص.

* والأصل الثانى : ما أفتى به الصحابة - وهى نصوص -.

* والأصل الثالث : - إذا اختلف الصحابة تخيّر من أقوالهم - وهى نصوص أيضاً - .

* والأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف، وتقديمها على القياس - وهى نصوص هى الأخرى - .

* والأصل الخامس : القياس للضرورة . .

حتى ليروى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه فيقول : « سمعت أبى يقول : الحديث الضعيف أحب إلىّ من الرأى ».

وهو ذات المنهج - النصوصي - الذى صاغه الإمام أحمد شعراً عندما قال :

دين النبى محمد آثار	نعم المطية للفتى الأخبار
لا تخدعن عن الحديث وأهله	فالرأى ليل والحديث نهار [(٤)]

هذا هو اللون الثالث من ألوان الخطابات الدينية الإسلامية، فى واقعنا الإسلامى - التاريخى منه والحديث والمعاصر - وحجم هذا

الخطاب وحجم جمهوره ـ كما يعلم كل ذى علم ـ محدودان، بل وهامشيان إذا ما قيسا بحجم وجمهور خطاب الوسطية الإسلامية.. لكن «المال النفطى» و«الإعلام الغربى» قد نفخا فى حجم هذا الخطاب النصوصى الحرفى، كى يوهما أنه هو الظاهرة الأكبر والأوسع انتشاراً فى عالم الإسلام، وذلك لحجب الأنظار عن الخطاب الوسطى المعتدل، ولتشويه الصورة العامة للخطاب الدينى الإسلامى.. وهى «لعبة» سبق ومارسها الاستشراق الغربى مع تراثنا وتاريخنا الحضارى، عندما وقفت جهود أغلب المستشرقين عند دراسة الفرق المنحرفة والضالة والهامشية فى تراثنا ـ فرق الغلو الباطنى.. والشخصيات القلقة فى الاعتقاد ـ وذلك لتشويه مجمل الصورة الإسلامية، ولإبراز الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى والأمة الإسلامية وكأنها ركام من «الشذوذ» و«التشرذم» لا قوام له، ولا وحدة فيه.

٤ ـ ورابع ألوان الخطاب الدينى الإسلامى، فى واقعنا المعاصر، هو خطاب الرفض والغضب والعنف والاحتجاج.. وهو خطاب يمثل فصيلاً من فصائل فقه وفكر نصوصية الجمود والتقليد، الذى استفزه بؤس الواقع الذى يعيشه المسلمون تحت هيمنة الغرب واستبداد النظم والحكومات ـ المصنوعة غربيًا.. أو المحروسة غربيًا! ـ فرفض هذا الفصيل طريق «الإصلاح» واختار طريق «العنف»، وأدار ظهره لسنة «التدرج» فى الإصلاح، وتعجل القفز على «السلطة والدولة» ـ بالانقلاب ـ بدلاً من مشاق طريق التربية والتوعية وتهيئة المجتمعات الإسلامية، بإعادة صياغة إنسانها صياغة إسلامية تستكمل إسلامية سجايا وشمائل هذا الإنسان.. وهو الطريق الشاق والطويل ـ والمضمون ـ للتغيير، الذى مثل ويمثل منهاج الإسلام فى أى تغيير.

ولقد «لعب» الإعلام الغربى ـ وتبعا له إعلامنا المحلى ـ مع فصيل العنف هذا ذات «اللعبة» التى لعبها مع فصيل الجمود والتقليد، فسلط عليه كل الأضواء، كى يصل إلى المقصد الخبيث الذى أراد الوصول إليه.. فقصد تصوير الإسلام وقرآنه الكريم ورسولهﷺ، على أنه دين العنف والسيف والذبح لكل المخالفين ومع جميع الآخرين!.

وإذا كانت الظواهر الفكرية والاجتماعية والإنسانية، هى كمثل الإنسان، له عقل.. وجسم.. وعضلات.. وأنياب وأظافر.. فإن فصيل العنف، والرفض، والغضب، والاحتجاج هذا ـ وخطابه الدينى ـ هو بمثابة «الأنياب والأظافر» فى الظاهرة الإسلامية المعاصرة.. ولقد رأينا كيف انفلتت هذه «الأنياب والأظافر» من حاكمية العقل الإسلامى فأصبحت تنهش الذات الإسلامية وتزعزع استقرار المجتمعات الإسلامية، وتهز هيبة النظم والدول الوطنية، فتخدم بذلك مخططات الأعداء، مع حسن نية وبراءة ظاهرتين لدى شباب هذا الفصيل.. بينما رأينا هذه الأنياب والأظافر، عندما خضعت لحاكمية العقلانية الإسلامية، توجه قوتها فقط إلى الأعداء، فتمثل أنبل ظواهر العصر فى الفداء والاستشهاد بمعركة تحرير أرض الإسلام ومقدساته من دنس الصهيونية والاستعمار.

وهكذا نجد أنفسنا ـ فى الحديث عن الخطاب الدينى الإسلامى ـ أمام ألوان من الخطابات الدينية، ولسنا أمام خطاب واحد، كما يحسب ويكتب الذين يهرفون بما لا يعرفون، فى هذا الميدان.. أو الذين ينافقون فيزيفون ما يعرفون!

* * *

التبديد الأمريكانى لخطابنا الدينى

لقد رأينا كيف أن تجدّد وتجديد الفقه والفكر والخطاب الإسلامى، هو سنة وقانون وضرورة.. وليس ترفًا فكريًا، ولا مجرد مباح وحق من حقوق العقل المسلم.

ورأينا، كذلك، كيف وضع العقل المسلم هذه السنة والقانون فى الممارسة والتطبيق ـ تاريخيًا وحديثًا وفى وقعنا المعاصر.

ورأينا، أيضًا، أننا بإزاء خطابات إسلامية.. ولسنا بإزاء خطاب دينى إسلامى واحد.. فهناك خطاب الوسطية الإسلامية ـ وهو أوسع الخطابات جمهورًا وانتشارًا ـ.. وهناك الخطاب الصوفى.. وهناك الخطاب النصوصى، المتسم بالجمود والتقليد.. كما أن هناك خطاب الغضب والعنف والرفض والاحتجاج.

وإذا كانت هذه هى ألوان وأحجام الخطابات الدينية الإسلامية، فى الفضاءات الإسلامية، منذ فجر نهضتنا الحديثة، وحتى هذا الواقع المعاصر والمعيش.. فإن هذا الذى أعلنه ويعلنه ويريده الأمريكان، والمنظمات، والمؤتمرات، والكُتّاب الذين يموّلهم الغرب، ويرعاهم، عن الخطاب الدينى الإسلامى، لا علاقة له بأى لون من ألوان التجديد لهذا الخطاب.. وإنما هو يصب بكامله فى خانة «التبديد»، لا «التجديد»!.

لقد تعايشت أمريكا والغرب مع الخطاب الديني الإسلامي لفصيل الجمود والتقليد ـ في المجتمعات النفطية ـ ثلاثة أرباع القرن، عندما كان هذا الخطاب واقفًا عند إطالة اللحى، وتقصير الثياب، وتحريم شرب الدخان، والتصوير.. وعندما كان «ولاء» هذا الخطاب للأوضاع والنظم التي تهيئ للغرب وأمريكا استغلال ثروات المسلمين، والهيمنة على بلاد الإسلام.. وعندما كان «البراء» و«التبديع» و«التفسيق» ـ في هذا الخطاب ـ موجهة إلى أغلبية الأمة ـ من «الأشعرية» و«الماتريدية» وتيار الإحياء والتجديد الإسلامي المعاصر ـ وطوال هذه العقود المتطاولة كانت العلاقة «سمنًا وعسلاً» بين الأمريكان والغرب وبين الخطاب الديني لهذا الفصيل.. ولقد تعايشت أمريكا مع خطاب فصيل العنف والرفض والغضب والاحتجاج، عندما تقاطعت مصالحهما إبان الجهاد ضد الشيوعية.. فلما انشق من فصيل الجمود والتقليد نبت جديد، له «أجندة» جديدة، وخطاب جهادي جديد، يتحدث عن تحرير أرض الإسلام وتطهير مقدساته من الصهيونية و«الإمبريالية» الأمريكية، وتحرير ثروات المسلمين ومقدراتهم وإرادتهم.. وخالف هذا النبت «السلفي الجهادي» تراث «سلفية الخضوع للسلطان» برًا كان أو فاجرًا ذلك السلطان.. هنا أصبح خطاب هذه «السلفية الجهادية» «عنفًا.. وإرهابًا.. ورجعية.. وظلامية.. وتخلفًا» يستحق حربًا صليبية عالمية، في نظر الأمريكان وأصدقاء الأمريكان وعملائهم!..

ومنذ ذلك التاريخ، رأينا كتابات الأمريكان، ومقالات ومؤتمرات «منظمات المجتمع المدني» ـ الممولة من أمريكا والغرب ـ التي

أصبحت «صوت سيدها الأمريكى»، رأينا تركيز كل هؤلاء على الحديث عن تجديد الخطاب الدينى الإسلامى، بذات المفاهيم التى يتحدث عنها الأمريكان والصهاينة، وليس بمفاهيم التجديد الإسلامى - الذى هو سنة وقانون من سنن الفكر عبر الزمان والمكان.

* فما إن أعلن الرئيس الأمريكى «بوش - الصغير» «الحملة الصليبية» على الإسلام - الذى سمّاه «إرهابًا» - فى ١٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م أى قبل بدء التحقيق فى أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م حتى انهالت من أفواه وأقلام الساسة والمفكرين الاستراتيجيين والكتّاب والصحفيين الأمريكان - ومعهم الكثير من نظائرهم الغربيين - وتبعا لهم العديد من الحداثيين المتغربين والعلمانيين والزنادقة وأشباه الزنادقة، فى عالمنا الإسلامى - الذين يحاربون «بسيوف الخواجة» الذى يمول «منظمات مجتمعهم المدنى» - حتى رأينا طوفان ثقافة الكراهية السوداء ينهال من هذه المصادر والأفواه والأقلام والمؤتمرات والإعلانات ضد الإسلام المقاوم، الذى يتصدى للصهيونية وأمريكا.. وضد ثقافة الجهاد والاستشهاد التى تحرك طاقات الأمة الإسلامية لتحرير أوطانها ومقدساتها من الاغتصاب الصهيونى والهيمنة الأمريكية والغربية.. وضد الخطاب الإسلامى الذى يقدم الإسلام منهاجًا شاملاً للحياة.. وذلك لتحويل الإسلام - بالعلمانية - إلى صيغة نصرانية تدع ما لقيصر لقيصر الأمريكى، مكتفية من الإسلام بالشعائر والطقوس والمناسك والعبادات.

لقد انهال طوفان ثقافة الكراهية السوداء هذا على الإسلام والخطاب الدينى الإسلامى، فور إعلان الرئيس «بوش - الصغير»

لهذه «الحملة الصليبية». . وقرأنا التصريحات. . والدراسات. . والمقالات التى شارك فيها ـ من أمريكا ـ: «جوزيف ليبرمان» المرشح السابق للرئاسة الأمريكية ـ و«جون أشكروفت» ـ وزير العدل الأمريكي ـ و«مادلين أولبرايت» ـ وزيرة الخارجية الأمريكية الأسبق ـ و«صموئيل هنتنجتون» و«فرانسوا فوكوياما» و«برنارد لويس» ـ من أبرز مفكرى الاستراتيجية الأمريكيين. . والكتاب المبرزين فى الدوائر القريبة من صناعة القرار الأمريكي ـ و«توماس فريدمان» و«ستانلى. أ. فايس» و«جوناثان آلتر». . وقساوسة اليمين الدينى و«المسيحية الصهيونية»، من أمثال «بات روبرتسون» و«جيرى فولويل» و«هول ليندسي» و«دافيد بريكز» و«فرانكلين جراهام» و«جيرى فاين» و«كلارنس واجز» و«ويليام. ج. بويكن» ـ الجنرال الأمريكي، نائب وكيل وزير الدفاع ومع كل هؤلاء الأمريكان شارك ـ من أوروبا ـ فى هذا الطوفان المعادى للخطاب الإسلامى ـ كثيرون وكثيرون، منهم: «سلفيو بيرلسكوني» رئيس وزراء إيطاليا ـ و«تونى بلير» ـ رئيس وزراءت انجلترا ـ و«مارجريت تاتشر» ـ رئيسة وزراء بريطانيا الأسبق ـ و«أوتو شيلي» ـ وزير داخلية ألمانيا ـ إلخ. . إلخ.

ولقد قرأنا فى هذه التصريحات والدراسات والمقالات معالم هذا العداء الغربى لهذا الخطاب الإسلامي. . وذلك من مثل:

«إن الحرب الحقيقة فى المنطقة الإسلامية هى فى المدارس، ولذلك يجب أن نفرغ بسرعة من الحملات العسكرية، لنعود مسلحين بالكتب لا بالدبابات، لتكوين جيل إسلامى جديد، يقبل سياساتنا، كما يحب شطائرنا.

إن مشكلة أمريكا هي مع المدارس الإسلامية، التى لا تعلّم التسامح مع أمريكا وإسرائيل.. وفى هذه المدارس تكمن الأيديولوچية التى هى الآن أخطر على أمريكا من شيوعية الاتحاد السوفييتى.

إن الدين الإسلامى دين عنف.. والنظام الأخلاقى الذى يستند إليه الإسلام مختلف عما هو فى الحضارة اليهودية المسيحية (الغربية).. وآيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين.. وإن هذه الحرب العالمية الجديدة هى حرب المدنية والحضارة (فى الغرب) ضد البربرية (فى الشرق).. وإن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب.. وإنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التى تراها ضرورية.. فالشعارات التى أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهى عند الحدود الأمريكية، بل تتعداها إلى الدول الأخرى.

وإن المعركة - فى حقيقتها - ليست ضد حفنة من الإرهابيين، ولا هى حتى ضد المسلمين الذين يتململون من السياسة الأمريكية والانحياز الأمريكى لإسرائيل.. وإنما المعركة الحقيقية هى ضد الأصوليين الإسلاميين الذين يرفضون القيم الغربية، والحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحى: فصل الدين عن الدولة.. وهذا هو التحدى الأيديولوچى الذى هو فى بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية!.. وإذا كانت الحرب على الإسلام غير ضرورية، فإن حربًا داخل الإسلام هى ضرورية

لتحويله إلى إسلام حداثى . . ليبرالى . . علمانى . . وإن الهدف من هذه الحرب داخل الإسلام، هو تحويل التعليم الإسلامى والخطاب الدينى الإسلامى إلى طريق «أتاتورك» (١٨٨١ ـ ١٩٣٨م) الذى أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها! . . فالمطلوب هو إحكام السيطرة على المدارس الدينية، وإعداد أئمة مستنيرين للمساجد، لترويج أفكار الغرب، وتشكيل الذهنية العربية لدى الجيل الجديد . . وإعادة صياغته تجاه الصراع العربى الإسرائيلى! . إن الإسلام دين الإرهاب . . وهو دين شيطانى وشرير . . ومحمد هو الشيطان نفسه . . وإن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله . . إن إلهنا أكبر من إلههم . . إن إلهنا إله حقيقى، وإله المسلمين صنم! . . وإنهم يكرهون الولايات المتحدة الأمريكية؛ لأنها أمة مسيحية يهودية، وحربنا معهم هى حرب على الشيطان»[٥] .

تلك بعض من النصوص التى مثلت «الإعلان الأمريكى والغربى» للحرب الصليبية على الخطاب الإسلامى، عقب أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م والتى نشرتها الكتب والمجلات والصحف الغربية، وتناقلتها وسائل الإعلام العالمية . . وعقدت لها المؤتمرات، منذ ذلك التاريخ .

فهى ـ إذن ـ وبالاعترافات الصريحة ـ حرب داخل الإسلام، لتحويله وتحويل خطابه الدينى عن طبيعتهما، ليكون خطابًا للإسلام الحداثى ـ بالمعنى الغربى للحداثة ـ الذى يقيم قطيعة معرفية كبرى مع

تراثه ومنهاجه الشامل للحياة.. وبنص عبارة هذه التصريحات - عن صنيع «أتاتورك» مع تركيا: «الذى أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها الإسلامى».. الأمر الذى يقف بالإسلام وخطابه عند الشعائر والعبادات والمحاريب والقلوب، فيكون علمانيًا، يقبل المبدأ المسيحى: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله».. ويقبل القيم الغربية.. ومن ثم يتسامح مع السياسة الأمريكية والاستعمار الاستيطانى الصهيونى لأرض فلسطين، ولما بين النيل والفرات - أرض الوعد التوراتى لبنى إسرائيل!.. كى ينفتح الباب لهدم المسجد الأقصى، وبناء «الهيكل الثالث» على أنقاضه، حتى يعود المسيح ﷺ، فيحكم الأرض ألف سنة سعيدة، بعد إبادة العرب والمسلمين فى معركة «هرمجدون» - بين القدس ويافا - !!

وعقب هذا «الإعلان للحرب» على الإسلام، وخطابه الدينى المقاوم للهيمنة الأمريكية وللعنصرية الصهيونية، توالت على كثير من البلاد الإسلامية «الطلبات» و«الضغوط» و«الأوامر» الأمريكية لتغيير مناهج ومواد التعليم الدينى، واختزال ساعات تدريس هذا التعليم، والوقوف به عند الشعائر والعبادات، دون شئون السياسة والحكم والمال وحقوق الشعوب فى تقرير المصير.. مع حذف ثقافة الجهاد والفداء والاستشهاد من التاريخ الإسلامى والخطاب الإسلامى.

* وبعد هذا «الإعلان».. وعقب صدور هذه «الطلبات» و«الضغوط» و«الأوامر» الأمريكية، جاء دور العملاء الحضاريين من أبنائنا، الذين يتسمون بأسمائنا، ويتكلمون لغتنا - والذين يموّل الغرب - علنا - «دكاكينهم» التى يسمونها «منظمات المجتمع المدنى» -

ليصبحوا «صوت سيدهم» ، وليتحولوا ـ بقدرة الدولارات الأمريكية ـ إلى خبراء فى تجديد الخطاب الدينى ، وهم الذين لم يعرف عن واحد منهم التخصص فى العلوم الإسلامية . . ومن قرأ منهم شيئًا فى هذه العلوم فإنما قرأه ليفسر الإسلام تفسيراً ماركسيًا ، بمنهاج المادية الجدلية والمادية التاريخية ، كى يصبح الإسلام «بناء فوقيًا» أفرزه صراع الطبقات .

لقد تجاهل هؤلاء المتمركسون والعلمانيون والحداثيون قضايا الأمة الرئيسية ـ فى تحرير الأرض ، وإنقاذ المقدسات ، ومقاومة الهيمنة الإمبريالية الأمريكية . . والفريضة الغائبة فى العدل الاجتماعى «والتشرذم القطرى لعالم الإسلام» . . إلخ . . إلخ ـ تجاهل هؤلاء المتغربون ـ من أحفاد «بونابارت» ـ قضايا الأمة ، وشرعوا فى التركيز على «الإفتاء العلمانى» فى مفهومهم الأمريكى لتجديد الخطاب الدينى للإسلام والمسلمين ! .

* * *

الفجور العلمانى
بين حدّه الأعلى.. وحدّه الأدنى

التأويل العبثى للدين:

فى كل الكتابات العلمانية، التى كتبها الحداثيون المتغربون عن الخطاب الدينى الإسلامى، تراوح الطرح بين «الحد الأعلى» الذى يريد نسخ الإسلام كدين، بدعوى «تاريخية النصوص» المقدسة والمؤسّسة، أو تأويلها تأويلاً عبثيًا يفرغها من خصائص الدين، على النحو الذى يحول الدين عن إلهيته فيجعله «دينًا طبيعيًا» «متأنسنًا» و«إفرازًا من إفرازات العقل البشرى»، وليس وحيًا إلهيًا معجزًا، ولطفًا ربانيًا من السماء لهداية الإنسان فى الدنيا والآخرة.

تراوح الطرح العلمانى ما بين هذا الحد الأعلى، الذى ينسخ الدين، أو يستبدل به «الدين الطبيعى»، وما بين «الحد الأدنى»، الذى لا يقنع بما دون العلمانية، التى تُخرج الإسلام عن طبيعته الشاملة لكل ميادين الحياة، وتقف به عند الصيغة النصرانية: خلاص الروح والقلوب.. ومملكة السماء.. تاركة الدنيا الإسلامية لنقيصر الأمريكى الجديد.

ولقد قرأنا لأصحاب الاتجاه الأول ـ اتجاه «الحد الأعلى» ـ من دعاة «الدين الطبيعى»، وتاريخية النصوص المؤسسة للدين الإسلامى ـ قرأنا «فجوراً فكرياً» يقول فيه صاحبه ـ بعد شهرين فقط من أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وإعلان الحرب الأمريكية على الإسلام والخطاب الدينى الإسلامى: «**إننا يجب أن نلتحق «بفولتير» (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م) وتصوره الطبيعى عن الدين والأخلاق، فالدين الحقيقى هو الدين الطبيعى.. ولا بد من تأويل جديد يكشف عن تاريخية النصوص التأسيسية، ويحل القراءة التاريخية ـ أى التنويرية ـ محل القراءة التبجيلية لهذه النصوص**»[٦].

وقرأنا لداعية آخر من دعاة تأويل الإسلام تأويلاً يفرغه من الغيب والإلهية والإعجاز ـ أى يُفرغ الدين من الدين! ـ ويحوّل نصوصه المقدسة إلى نصوص بشرية تاريخية، تجاوز التاريخ معانيها وأحكامها وحتى عقائدها وقيمها، فلم يعد فيها معنى ثابت ولا خالد ولا مطلق!.. قرأنا لصاحب هذه الدعوى ـ وهو الذى قدم حولها بحثاً فى مؤتمر باريس، الذى نظمه وأنفق عليه الاتحاد الأوروبى ـ فى ١٢، ١٣ ـ ٨ ـ ٢٠٠٣م ـ لتجديد الخطاب الدينى الإسلامى ـ قرأنا له ترديد مقولات أسياده الأمريكان ـ من قساوسة اليمين الدينى والمسيحية الصهيونية ـ التى تتهم القرآن والإسلام بأنه كتاب عنف ودين إرهاب ضد غير المسلمين! فلقد كتب ـ فى يناير سنة ٢٠٠٢م ـ لتجديد الخطاب الدينى الإسلامى ـ أى بعد أشهر من إعلان الحرب الأمريكية على الإسلام، وفى ذروة العدوان الأمريكى المسلح على البلاد الإسلامية ـ كتب يقول: «**لماذا يستشهد المسلمون دائماً بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى تبرز الوجه السلمى المتسامح**

للإسلام، ويتجاهلون النصوص الأخرى التى تحض على القتال والقتل والإرهاب؟! مع أن هذه النصوص التى تحض على القتال نزلت بعد النصوص التى تؤكد التسامح والمساواة»[7]؟!

وهو هنا يتحدث عن المسلمين وكأنه ليس منهم.. ويتهم، ليس المسلمين فقط، وإنما القرآن الكريم، بأنه قد شرّع للقتال والقتل والإرهاب ضد غير المسلمين، وأن هذا التشريع للقتال والقتل والإرهاب لاحق على تشريعه للتسامح والمساواة، فكأنما آيات القتل والإرهاب ـ في القرآن وفق هذا الافتراء ـ ناسخة لآيات التسامح والمساواة!! حتى لكأنه ـ وهو المنتسب للإسلام ـ المستشرق الصهيونى «برنارد لويس»، الذى قال: «**إن آيات القرآن تصدّق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين**»!! أو لكأنه مؤسس «جماعة التحالف السياسى المسيحى» بأمريكا القس «بات روبرتسون» الذى قال: «**إن الدين الإسلامى دعا إلى العنف.. وإن أسامة بن لادن، بالنظر إلى المعنى الحقيقى لآيات قرآنية، أكثر وفاء لدينه الإسلام من آخرين**».

ولقد تجاهل كل هؤلاء ـ من «السادة» الغربيين و«أتباعهم» المتغربين ـ أن آيات «سورة التوبة»، التى يغمزون فيها ويلمزون، إنما دعت إلى قتال أئمة الكفر المشركين المقاتلين إبان الحروب التى أعلنها هؤلاء المشركون على الإسلام وأمته، بعد أن فتنوهم فى دينهم وأخرجوهم من ديارهم، لا لشيء إلا لأنهم قالوا: ربنا الله!.. فالقتال هو فقط لهؤلاء المشركين المعتدين المقاتلين الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين، ونكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، والذين لا يرقبون فى المؤمنين إلاَّ ولا ذمة ـ رحماً ولا عهداً ـ وهم المعتدون الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وصدوا عن سبيل الله، وأخرجوا

الرسول ﷺ، والمؤمنين من ديارهم، وفتنوهم في دينهم - والفتنة أشد من القتل -.

تلك هي صفات المعتدين المقاتلين الذين شرع القرآن - في سورة التوبة - قتالهم، قصاصًا وردًا للعدوان.. ولم تشرّع آيات القرآن - في التوبة ولا في غيرها - قتال غير المسلمين، بتعميم وإطلاق.. بل لقد استثنت آيات سورة التوبة هذه من قتال المشركين الذين لم ينقضوا عهدهم مع المسلمين، فطلبت احترام عهودهم لقوله تعالى: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ (التوبة: ٤)؛ كما طلبت هذه الآيات من المسلمين إجارة المشركين الذين يريدون سماع دعوة الإسلام، ثم إبلاغهم إلى مأمنهم، حتى مع بقائهم على شركهم بعد سماعهم دعوة الإسلام: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ (التوبة: ٦). ثم إن التشريع القرآني العام في التعامل مع غير المسلمين قد أكدت عليه آيات سورة الممتحنة، التي جعلت البر والقسط لغير المسلمين - كل غير المسلمين - الذين لا يفتنون المسلمين في دينهم ولا يخرجونهم من ديارهم، كما جعلت القتال فقط للذين يحاربون المسلمين في الدين والوطن ردًا لعدوانهم: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ۝ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ (الممتحنة: ٨ - ٩).. بل وحددت الآية التي سبقت هذه

الآيات المقصد الإسلامى من هذا التشريع، وهو تحقيق المودة مع المخالفين، فقالت: ﴿عسى اللهُ أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ﴾ (الممتحنة: ٧).

ذلك هو القرآن الكريم.. وتلك هى آيات سورة التوبة التى يغمز ويلمز فيها الجاهلون والمتجاهلون، من الغربيين والمتغربين، أعداء الإسلام والخطاب الدينى للإسلام.

لكن.. ماذا ننتظر، وماذا ينتظر الإسلام من هذا الداعى إلى نسخ الإسلام - بالتأويل العبثى، وبتاريخية أحكام القرآن وحتى عقائده ومنظومة القيم التى جاءت فيه - والذى يقول عن الوحى الإلهى المعجز، ونبأ السماء العظيم: «إنه نص بشرى، وخطاب تاريخى، لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا.. فالقرآن، فى حقيقته، مُنتج ثقافى، تشكل فى الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عامًا.. فالواقع أولاً، والواقع ثانيًا، والواقع أخيرًا.. إن النص القرآنى منظومة من مجموعة من النصوص.. وإذا كان يتشابه فى تركيبته تلك مع النص الشعرى، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلاً، فإن الفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل فى المدى الزمنى الذى استغرقه تكوّن النص القرآنى.. الذى انحاز - فى مخاطبة النساء - لنصوص الصعاليك»(٨).

ماذا ننتظر، وماذا ينتظر الإسلام من الذى فسر الوحى السماوى تفسيرًا ماركسيًا، بمعايير المادية الجدلية، فرآه نصًا بشريًا، وبناء فوقيًا، كوّنه البناء التحتى - الاجتماعى والثقافى - «ولم يكن له وجود سابق على تشكّله فى الواقع، هذا التشكّل الذى صنعته الأبنية الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية . . فهو دياليكتيك صاعد (من الواقع الأرضي) وليس دياليكتيكا هابطًا»[٩] (منزلاً من السماء).

وكأنما قد اكتشف ـ في علاقة النص القرآني بشعر المعلقات ما لم يكتشفه أصحاب تلك المعلقات! . . كما اكتشف في انحياز القرآن لشعر الصعاليك ما لم يكتشفه شعراء الصعاليك أنفسهم، فأثبت تفوق صعاليك العصر على الصعاليك القدماء!!

كما يذهب هذا الذي يريد تفريغ الإسلام من خصائص الدين ـ فلا تقف مجازفاته عند الخطاب الديني ـ يذهب على هذا الدرب إلى تأويل النبوة وتفسير الوحي «بقوة المخيلة»، التي تزيد لدى النبي ـ في الدرجة ـ عنها لدى الشاعر الذي يتصل بالشيطان، والكاهن الذي يتصل بالجان. . فاتصال النبي بالملك ـ الوحي ـ هو مجرد قوة مخيلة، لا إعجاز فيه ولا مفارقة له عن قوانين الثقافة البشرية المعروفة. يذهب إلى ذلك. فيقول: «إن تفسير النبوة اعتمادًا على مفهوم «الخيال» معناه: أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة، انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية، التي تكون في «الأنبياء» أقوى منها عند سواهم من البشر. . إن «الأنبياء» و«الشعراء» و«العارفين» قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية «المخيلة» في اليقظة والنوم على السواء. والنبوة، في هذا التصور، لا تكون ظاهرة فوقية مفارقة. . ويمكن فهم الانسلاخ أو «الانخلاع» في ظل هذا التصور على أساس أنه تجربة خاصة، أو حالة من حالات الفعالية الخلاقة. . وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي ـ القرآن ـ لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع. . بل كانت جزءًا من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها وتصوراتها. .»[١٠]

بل لقد ذهب على هذا الدرب - في التفسير المادي والماركسي للإسلام - ولكل دين من الأديان - إلى تجاوز الدعوة «للدين الطبيعي» فدعا إلى إلغاء حتى هذا الدين الطبيعي . . وإلغاء كل عقائد عالم الغيب حتى ولو كانت مجرد فكر إنساني، وليست عقائد إلهية . . وصل إلى هذا الحد، فتساءل - تساؤل الإنكار والاستنكار - : . . وما الداعي للتردد الذي يُحل «التلوين» محل «التأويل» . . ويتعارض مع تاريخية الوحي . . ويسمح باستمرار الوحي، بكل ما يرتبط به من عقائد التوحيد والبعث والجزاء، حتى بالمعنى المجازي - الوحي الطبيعي»[11]!!.

فهو لا يقنع بتحويل «الدين الإلهي» إلى «دين طبيعي» . . وتحويل «حقائق الدين» إلى «مجازات» لا حقيقة فيها . . ويرى في ذلك «تلوينًا» أثمره «التردد» . . ويدعو إلى «التأويل» الحقيقي، الذي لا تردد فيه . والذي يلغي الوحي، والعقائد - بما في ذلك «عقائد التوحيد والبعث والجزاء» - حتى ولو كانت مجرد فكر إنساني، لا علاقة لها بالدين الإلهي!!

بهذا «الحد الأعلى» من الفجور كتبت كُتب . . ودراسات . . ومقالات . . وأبحاث قُدمت إلى المؤتمرات التي مولها الغرب لنقد ونقض الخطاب الديني للإسلام والمسلمين . . فهل اختلط الأمر بين الخطاب «الديني» والخطاب «اللاديني» عند هؤلاء؟!

وهل بلغ الهوان بأمة محمد ﷺ، التي تملك الوحي الصحيح الوحيد على ظهر هذه الأرض . . والتي فتح صحابة رسولها ﷺ - في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الإغريق والرومان في ثمانية قرون -

وشتان بين فتح التحرير وفتح القهر والتدمير ـ . . والتى مثلت ديارها مقابر الغزاة والأحلام الإمبريالية على مر تاريخها الطويل .

هل بلغ الهوان بهذه الأمة أن تتعلم خطابها الدينى من «العملاء الحضاريين»، الذين يحتضنهم الغرب، وينفق عليهم السحت لقاء أكاذيبهم وتكذيبهم لله والرسول والإسلام . . من مثل ذلك الذى حضر مؤتمرباريس، ودعا إلى «تجديد الإسلام». فضلاً عن خطابه الدينى ! . . والذى كتب فى واحد من كتبه «مقالات الفجور» التى بلغ فيها حد التكذيب لعقيدة التوحيد الدينى معتبراً إياها «لعبة سياسية» لجأ إليها الرسول ﷺ ، وصحابته لتكون «الأيديولوجية السياسية» لتوحيد القبائل العربية فى دولة واحدة . . فقال :

«وكانت الدعوة إلى الإله الواحد تهدف إلى إحلال نظام الدولة العربية الموحدة محل النظام القبلى القائم على الصراع والتناحر، لذلك كان الإله الواحد، معبود الدولة الجديدة، هو إله إبراهيم، الجد الأعلى للعرب أولاد إسماعيل»!!!

فكأنما الوحدانية الإلهية ليست حقيقة موضوعية، دعت إليها كل الشرائع السماوية، وإنما هى مجرد «بناء فوقى» لـ «البناء التحتى» ـ توحيد الدولة العربية ـ وفق المادية الجدلية الماركسية!! . .

وذهب على هذا الدرب فطعن فى الحفظ الإلهى للقرآن الكريم ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩) فقال: **«إن النص القرآنى لم ينجُ من آثار عمليات المحو والإثبات»**(١٢)!!

هل بلغ الهوان بأمة محمد ﷺ ، الحد الذى تتعلم من هؤلاء «العملاء» كيف تجدد الخطاب الدينى للإسلام؟! .

علمنة الإسلام:

وغير الذين أرادوا ـ بنقد الخطاب الديني الإسلامي ـ إلغاء الإسلام، بتأويل عقائده وأحكامه ومنظومة قيمه، تأويلاً يفرغ الدين من الدين! ودعوا إلى «تاريخية.. أو تاريخانية» النصوص المؤسسة للإسلام ـ وفي مقدمتها القرآن الكريم ـ لتتحول إلى «متحف العاديات الفكرية» التي تجاوزها التاريخ!

غير هؤلاء الذين ذهبوا على هذا الدرب إلى «الحد الأعلى» ـ الذى هو «الأسفل» في حقيقة الأمر! ـ كان هناك الذين وقفوا عند الدعوة إلى العلمانية، وإلى علمنة الإسلام وخطابه الديني..

ولقد مثل هذا الفريق ـ هو الآخر ـ صوت سيده الأمريكي والغربي، الذى أعلن أن الهدف من «الحرب داخل الإسلام» هي جعله علمانيًا، كما صنع به كمال أتاتورك (١٨٨١ ـ ١٩٣٨م) في تركيا، بعد إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م.. ونحن نقول لدعاة علمنة الإسلام وخطابه الديني ـ الذى لن يصبح عند ذلك دينيًا!! :

إن العلمانية قد مثلت جناية على النصرانية الغربية ـ مع أن هذه النصرانية مجرد وصايا روحية صوفية، لخلاص الروح.. وليس فيها مرجعية للسياسة والاجتماع والاقتصاد والدولة ـ.. ومع ذلك، كانت العلمانية الغربية جناية على النصرانية الغربية، عندما استبدلت «الدين الحداثي» ـ دين العقل المجرد ـ باللاهوت والدين الإلهي، فأزاحت هذه العلمانيةُ النصرانيةَ من الثقافة الأوروبية.. ثم عجز هذا «الدين الحداثي» عن أن يجيب على الأسئلة الطبيعية والفطرية للإنسان، تلك التي كان يجيب عليها الدين الإلهي، فغدت أوروبا فراغًا عقديًا، لا هي نصرانية ـ كما كانت قبل العلمنة ـ ولا العلمانية

استطاعت ملء الفراغ الذى خلفته النصرانية المنهزمة . . ففقد الإنسان الأوروبى توازنه، بغيبة الروح والطمأنينة القلبية عن هذا الإنسان.

ويكفى أن نقدم لدعاة علمنة الإسلام وخطابه الدينى شهادة شاهد من أهلها . . شهادة القس الألمانى وعالم الاجتماع «جوتفرايد كونزلن» التى يقول فيها: «لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى، وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر من حقب التاريخ البشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى . . ولقد مثلت العلمنة: تراجع المسيحية . . وضياع أهميتها الدينية . . وتحوّل معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية، والفصل النهائى بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية . . وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة وسياسة بلا دين.

ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملاً . . وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم . . بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام . . فسلطة الدولة، وليس الحقيقة، هى التى تصنع القانون، وهى التى تمنح الحرية الدينية.

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينًا حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوانين دنيوية، هى العقل والعلم.

لكن . . وبعد تلاشى المسيحية . . سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان التى كان الدين يقدم لها الإجابات . . فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين . . وغدت الحداثة

العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتُفكِّكُ أنساقها ـ العقلية والعلمية ـ عدميةُ ما بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة.. فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث.. وتحققت نبوءة «نيتشه» (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠م) عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون (نجمهم) الذى فوقهم، ويحبون حياة تافهة، ذات بُعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه».. وبعبارة «ماكس ڤيبر» (١٩٦٤ـ ١٩٢٠م): «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم».

ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاشَ، بل تزايد.. وفى ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية التى لا علاقة لها بالمسيحية ـ ولا بالكنيسة ـ من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخارقة.. والاعتقاد بالأشباح.. وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسيوية.. والإسلام، الذى أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا فى المجتمعات الغربية.

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا.. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوروبى، عندما أصبح معبدها العلمى عتيقًا!.. ففقد الناس «النجم» الذى كانوا به يهتدون: وعد الخلاص المسيحى.. ثم وعد الخلاص العلمانى»[١٣].

هذه شهادة عقلاء الغرب على صنيع العلمانية بالمسيحية فى أوروبا

والغرب: «خراب دينى»، تلاه إفلاس علمانى، الأمر الذى أسلم الإنسان الأوروبى للقلق، الذى جعل أوروبا ـ رغم الوفرة المادية . . وتخمة الغرائز والشهوات ـ مكانًا لأعلى نسب الانتحار فى العالم!! . . وجعلها ـ رغم الإباحية الجنسية، بما فى ذلك الشذوذ ـ تعيش أعلى نسبة للعنف ضد المرأة .

ـ ففى السويد ٩٥٪ من الجنسين لهم تجارب جنسية قبل الزواج! . .

ـ وفى النمسا قرابة ثلثى حالات الطلاق تتم بسبب العنف المنزلى! . .

ـ وفى انجلترا أكثر من ٥٠٪ من القتيلات كن ضحايا الزوج أو الشريك . . ولقد تضاعفت حالات الطلاق فى خمسين عامًا ثلاثة وعشرين ضعفًا! . .

ـ وفى فرنسا، كل عشر زيجات بينهم تسع تتم خارج الإطار الشرعى ـ الكنسى والقانونى ـ و٥٣٪ من الأمهات يضعن مولودهن الأول خارج مؤسسة الزواج! . .

ـ وفى الدنمارك، زادت نسبة المواليد غير الشرعيين خلال أربعين عامًا من ٥٪ إلى أكثر من ٥٠٪ من المواليد! . . وهذه هى نسبتهم فى فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وأيرلندا .

ـ ولقد أصبح تقنين حرية الشذوذ الجنسى ـ بكل ألوانه ـ شرطًا من شروط دخول الدول للاتحاد الأوروبى! . .

ـ وفى أمريكا ٦٠٪ من عضوات أكبر المنظمات النسائية

سحاقيات!.. و٨٠٪ من الأمريكيات يفقدن بكارتهن قبل الزواج!.. و٨٠٪ من جرائم القتل عائلية!.. وفيها أعلى نسبة طلاق فى العالم!.. ولقد ارتفعت نسبة الجريمة فى ثلاثين عامًا.. من سنة ١٩٦٠م إلى سنة ١٩٩٠م ٥٠٠٪.. و٢٠٪ من السكان يتعاطون أخطر أنواع المخدرات!.. وعائد الرأسمالية الأمريكية من تجارة الدعارة فى الأطفال ـ وحدهم ـ مليارى دولار سنويًا!

ـ وفى عالم العلمانية الغربية ـ التى يريدون تعميمها فى بلاد الإسلام ـ ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ (ستون مليونا) من النساء يحاولن الإجهاض كل عام!.. والتجارة الأولى ـ فى عالم العلمانية ـ هى تجارة السلاح، تليها تجارة المخدرات، تليها تجارة الدعارة!

فهل يراد للشرق الإسلامى أن تصنع به العلمانية ما صنعت بالغرب النصرانى؟!.. وبعبارة أدق «بالغرب الذى كان نصرانيًا؟!».. ذلك أن العلمانية قد أخرجت أوروبا عن أن تكون ـ كما كانت ـ قلب العالم المسيحى.. فالذين يؤمنون فيها بوجود إله لا يتجاوزون ١٤٪.. والذين يذهبون إلى الكنائس لا يتجاوزون ١٠٪.. وهم يذهبون إلى الكنائس كما يذهبون إلى حفلات الترفيه، بإغراءات الموسيقى الصاخبة.. والاختلاط الماجن.. فحتى هذه الكنائس ـ التى لم تغلق بعد ـ قد خان الكثير منها مسيحيتها، فعقدت تزوج الشواذ.. بل ودخل نفر من كهنتها فى صفوف الشواذ!.

بل إن العلمانية قد أوصلت إنسانها إلى ألوان من الأنانية واللاأدرية والقنوط ـ عندما فقد «النجم» الذى يهديه ـ فعزف عن الزواج والإنجاب ـ فتحللت الأسرة ـ وتدنى معدل الخصوبة إلى حده

الأدنى ـ عالميًا ـ فى عالم العلمانية، حتى لقد شاع الحديث عن «موت الغرب»، وانقراض شعوبه.. وفى مقدمة الشعوب المعرضة لهذا الخطر الشعب الإيطالى ـ حيث الفاتيكان ـ!! وفى ألمانيا تغلق المدارس ـ مع الكنائس ـ لقلة الأطفال والمؤمنين!.. وفى انجلترا تنبأ البعض بزيادة عدد المسلمين على عدد الأنجليكانيين الملتزمين دينيًا بعد عدة سنوات!!

فهل يريد الحداثيون المتغربون ـ الداعون إلى علمنة الإسلام.. وخطابه الدينى ـ أن تتجرع أمتنا الإسلامية هذا الكأس المسموم للعلمنة والعلمانية؟!.. ليصبح إسلامنا، وتصبح أمتنا ـ دينيًا.. وخلقيًا.. واجتماعيًا ـ على هذا الحال البائس الذى صنعته العلمانية بأوروبا والغرب؟!

وهل هذه العلمانية ـ التى يريد الغرب والمتغربون أن تتجرع كأسها المسموم ـ هى الطريق إلى تجديد الخطاب الدينى فى الإسلام؟!..

* * *

إن الإسلام لم ولن يعرف الكهانة التى تحتكر العلم الإسلامى فى فئة من الفئات أو طبقة من الطبقات.. فقط: لا بد للحديث فى الإسلام وخطابه الدينى من «العلم» و«الاستقامة» فبدون العلم الإسلامى لا يحق لإنسان الخوض فى «الشأن الإسلامى»: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ (الإسراء: ٣٦)، ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾ (فصلت: ٣٠).

فبدون «العلم الإسلامي» يصبح الخوض في الحديث عن الخطاب الديني مجازفات غاشمة تتساوي مع «العدوان» .. وبدون «الاستقامة» يصبح «العلم» - في حالة وجوده - علماً شيطانياً، يفسد ويضل، بدلاً من الهداية والإصلاح.

لذلك، يحق لنا - وللقراء - أن يتساءلوا: هل من حق هذا «الحداثي - الفرنكفوني» أن يشرع لأمة محمد ﷺ، كيف تجدد خطابها الديني؟! .. هذا «الحداثي - الفرنكفوني» الذي:

يدعو إلى تعبير الأنثى بجسدها .. لأن فصاحة الجسد العاري - عنده - لا تعادلها فصاحة أخرى! .. فالجسد العاري «للموديل - في مرسم الفنان - بل ولجسد آدم وحواء، هو قمة البلاغة في التعبير»!.

* وهو يدعو إلى الاحتفال بالإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ق. م) وتزيين ميادينا بتماثيله - مع أنه هو الذي افتتح غزو الغرب للشرق .. وقهر الغرب لحضارات وديانات وثقافات الشرق، قهراً دام عشرة قرون .. حتى جاء الفتح الإسلامي فحرر الشرق من هذا القهر الحضاري.

* ولقد شارك هذا «الحداثي الفرنكفوني» في الاحتفال بالاحتلال - بدلاً من الاستقلال - احتلال «بونابارت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) لبلادنا (١٢١٣ - ١٧٩٨م) .. احتفل بهذا الاحتلال - في ذكرى مرور قرنين عليه - عامين كاملين - هما مدة ذلك الاحتلال!.

* وكتب هذا الحداثي، متحدياً المشاعر الفطرية للأمة - وللإنسانية - عندما قتل الصهاينة الطفل «محمد الدرة» فدعا إلى «كراهية القتل» دون «كراهية القاتل الصهيوني»!! .. الأمر الذي يطرح السؤال

عن ما إذا دخل هذا «الرجل» إلى بيته فوجد من يرتكب جريمة القتل أو السرقة أو الزنا.. هل سيكره الجريمة دون المجرم؟!.. وهل تقام العقوبة على الجريمة أم على المجرم؟!

* بل لقد ذهب هذا «الحداثي الفرنكفوني» إلى حد إنكار وجود المقدسات.. فعندما سئل عن رأيه فيما «لو اصطدم المبدع الشاعر بما هو مقدس؟».. فكان جوابه: «إن المقدس ليس كائنًا خارج الشعر أو خارج الإنسان.. المقدس مقدس لأننا نقدسه.. والشاعر يفترض أنه قد غلبته النشوة، أو روح السخرية، أو الجحود، فماذا يصنع في هذه الحالة؟ نحن نتوقع دائمًا من الشاعر أن يكتب بلغة تؤدي ما يريد أن يؤديه، لكن تظل اللغة محافظة على ما لها من جمال»[١٤].

فالمقدس الديني ـ عند هذا «الحداثي الفرنكفوني» ـ هو اختراع يخترعه من يؤمن به، ولا وجود له في الواقع والحقيقة.. والسخرية من هذا المقدس، والجحود له ـ في لحظات «النشوة» ـ أمر طبيعي، طالما كانت العبارة التي تعبر عن هذه السخرية وهذا الجحود، عبارة جميلة.. فقط لا غير!!

فهل من مثل هذا ـ وأمثاله ـ تتعلم أمة محمد ﷺ، كيف تجدد خطابها الديني؟!.

* * *

وصمت الجبناء
عن عورات الخطابات الأخرى

إننا نسأل هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون في قضية الخطاب الديني ، من الذين يريدون «تبديد» هذا الخطاب بالعلمانية حيناً، وبنسخ الدين وإلغائه بالتأويل العبثي لنصوصه المقدسة ، والأحكام والعقائد والقيم التي جاءت بها هذه النصوص . . نسأل هؤلاء الذين انطلقوا - بتمويل الغرب وتنظيماته - يتحدثون عن الخطاب الديني عندما وضع الغرب هذه القضية في «جدول أعمال» المنظمات والمؤتمرات التي يقيمها وينفق عليها . . نسألهم :

- أليس هناك - في الدنيا - خطابات دينية - غير الخطاب الإسلامي - تحتاج إلى تجديد؟! . . بل وأولى كثيراً جداً من الخطاب الإسلامي بالتجديد؟!

لِمَ لم يتحدث واحد منهم - ولا منظمة من «منظمات مجتمعهم المدني» أو مؤتمر من مؤتمراتهم الممولة باليورو والدولار - عن وضع المرأة - مثلاً - في الخطاب الديني لليهودية؟ وهم الذين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها عن وضع المرأة في الخطاب الديني الإسلامي؟ . . وإذا كان في «الفكر» الإسلامي لون من التخلف في النظرة للمرأة - وهذه

حقيقة ـ فهلا قرأوا في النصوص المؤسسة لليهودية التلمودية، ما جاء في سفر التكوين إصحاح ٣: ١١، ١٢، ١٦: «لقد سأل الرب آدم:

ـ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟.

ـ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت».

ـ فقال الرب للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك»!!.

ففي هذا النص التأسيسي ـ الذي كتبوه بأيديهم ثم قالوا هو من عند الله ـ وليس فقط في «الخطاب» اليهودي ـ تتحمل المرأة وحدها وزر الخطيئة الأولى ـ التي حملت البشرية كل تبعات أوزارها ـ الأمر الذي جعل حملها وولادتها ـ بل وحتى التشوق إلى زوجها ـ عقوبات إلهية للمرأة على هذه الخطيئة الأولى!

فأين هذا من مقالات ومؤتمرات الذين تخصصوا في الخطاب الديني الإسلامي، وحده.. وفقط لا غير؟!..

وألم يصل إلى علمهم أن التراث اليهودي يُعلم أبناءه أن يصلوا كل صباح صلاة شكر لله لأنه لم يخلق الواحد منهم عبداً ولا وثنياً ولا امرأة؟!.. وللرجل ـ في هذا التراث وخطابه الديني ـ أن يبيع بناته إماءً؟!

ولمَ لا يتكلم الغرب والمتغربون عن الخطاب النصراني الغربي، الذي جاء فيه ـ عن المرأة ـ قول القديس «فنتيرا» (١٢٢١ ـ ١٢٧٤م):
«إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم شاهدتم موجوداً بشرياً، ولا موجوداً

موحشًا؛ لأن ما ترونه هو الشيطان نفسه. وإذا ما تكلمت، فإن ما تسمعونه هو فحيح الأفعى»!

وجاء ـ في هذا التراث.. وخطابه الديني ـ قول القديس «توما الأكويني» (١٢٢٥ ـ ١٢٧٣م) عن المرأة: «لا وجود في الحقيقة إلا لجنس واحد، هو المذكر، وما المرأة إلا ذكر ناقص، ولا عجب إن كانت المرأة، وهي الكائن المعتوه والموسوم بميسم الغباء ـ قد سقطت في التجربة (الخطيئة الأولى).. ولذلك، يتعين عليها أن تظل تحت الوصاية»!

أما القديس «أغسطين» (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) فلقد دعا إلى «إخضاع النساء للرجال كما يخضع العقل الضعيف للعقل القوي»!..

وقبل ذلك، جاء في رسالة «بولس» الأولى لأهل «كورنثوس»:

«فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده. وأما المرأة فهي مجد الرجل. لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل. ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل» ـ إصحاح ١١: ٧ ـ ٩.

وجاء في هذه الرسالة أيضًا:

«لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذونًا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضًا. ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة» ـ إصحاح ١٤: ٢٤، ٢٥.

فأين هي كتابات الحداثيين والمتغربين ومؤتمراتهم ـ المحولة من

الغرب ـ عن تجديد هذه الخطابات الدينية؟! . بل، ولم يصمت هؤلاء صمت القبور عن الخطاب الديني العنصري لليهودية التلمودية، التي جعلت من العنصر اليهودي وحده شعبًا مختارًا لله، ومقدسًا فوق جميع الشعوب، ودون كل الشعوب، ليأكل هؤلاء اليهود كل الشعوب أكلاً! . . ويبيدونهم ويهلكونهم هم وكل مقومات الحياة التي لديهم ـ وهي عنصرية تعدت حدود «الخطاب» لتضعها الصهيونية في الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين، في حماية وحراسة الغرب وخطاباته الدينية «المسيحية ـ الصهيونية»، في القرن الواحد والعشرين!!

لم يصمت كل هؤلاء الغربيين والمتغربين عن الخطاب الديني اليهودي، الذي يقول «عهده القديم» ـ في التشريع للتطهير العرقي ـ: «**وكلّم الرب موسى في عربات موآب على أردنّ أريحا قائلاً: كلّم إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم. تملكون الأرض وتسكنون فيها. . وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم، يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم ومناخس في جوانبكم، يضايقونكم في الأرض التي أنتم ساكنون فيها، فيكون أني أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم**» سفر العدد. . إصحاح ٣٣: ٥٠ ـ ٥٣، ٥٥، ٥٦ ـ.

وهذا الخطاب اليهودي هو الذي يشرع «الترانسفير ـ التهجير القسري»، الذي مورس ويمارس ضد الشعب الفلسطيني منذ سنة ١٩٤٨م وحتى اليوم. . حتى لقد قذف بنحو سبعة ملايين فلسطيني من ديارهم إلى المنافي والمخيمات والمستنقعات، دون أية حقوق للإنسان. . بل ولا حتى الحيوان!

وهذا الخطاب الديني اليهودي هو الذي يشرع للإبادة التي تمارس الآن على أرض فلسطين ـ إبادة البشر والشجر والحجر وكل مقومات الحياة ـ وذلك انطلاقًا من «آيات» العهد القديم التي تقول ـ على لسان الرب ـ : «إن سمعت عن إحدى مدنك التي يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولاً . . فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرّمها (تهلكها) بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف . . تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعد . . لكى يرجع الرب عن حموّ غضبه، ويعطيك رحمة»! سفر التثنية إصحاح ١٣ : ١٢، ١٥ ـ ١٧ ـ . . فرحمة الرب «يهوه» مرهونة بإبادة الإنسان والحيوان، وحتى الطبيعة أيضًا! . .

كما يشرّع هذا الخطاب الديني اليهودي للاستعباد الجماعي . . فمن ينجُ من إبادة اليهود، يقع في العبودية والاستعباد، حتى ولو كانت هناك عقود صلح ومعاهدات وعهودا . . يشرّع لذلك، فيقول ـ على لسان الرب«يهوه»ـ : «حين تقترب من مدينة لكى تحاربها، استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويُستعبد لك . . وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن . . فلا تستبق منها نسمة ما. بل تحرمها تحريمًا ـ (تهلكها إهلاكًا) . . »ـ سفر التثنية. إصحاح ٢٠ : ١٠ ـ ١٦ .

فالذين يسالمون ويسلّمون ويعاهدون، لهم السخرة والاستعباد.. والذين يحاربون دفاعاً عن مدينتهم لهم الإبادة والهلاك!.

بل ويبلغ هذا الخطاب الديني اليهودي قمة العنصرية عندما يقدس العنصر اليهودي، ويجعله شعبًا مقدسًا معصومًا، دون كل الشعوب، وفوق جميع الشعوب، ليأكل كل الشعوب، دون أن تشفق عين اليهود على أي من هذه الشعوب، أو أن يعقدوا لهم عهداً!.. فيقول هذا الخطاب ـ في «العهد القديم» ـ على لسان «الرب يهوه»، مخاطبًا الشعب اليهودي: «**سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرّمهم (تهلكهم).. لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم.. لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب.. لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التي عرفتها لا يضعها عليك، بل يجعلها على كل مبغضيك. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك، لا تشفق عيناك عليهم..**» سفر التثنية إصحاح ٧: ١ ـ ٣، ٦، ٧، ١٤ ـ ١٦ ـ.

فأين الحداثيون والعلمانيون ودعاة تاريخية النصوص الدينية.. وأين المؤتمرات الممولة من الغرب، من هذا الخطاب الديني، الذي يمارس الآن ويطبق على أرض فلسطين، في القرن الواحد والعشرين؟!..

كما يصمتون صمت القبور على نصوص التلمود التي تقول ـ من خلال الخطاب الديني اليهودي ـ: «**إن غير اليهودي ليس أخًا..**

لذلك، يحظر على الطبيب اليهودى معالجة غير اليهودى.. حتى ولو كان مقابل أجر.. ولكن إذا كنت تخشاه فعالجه بأجر.. ومن المسموح تجريب عقار على غير اليهودى إذا كان ذلك يخدم غرضاً معيناً.. ويحظر انتهاك السبت لإنقاذ حياة مريض غير يهودى فى حالة بالغة الخطر!.. ويحظر توليد امرأة غير يهودية يوم السبت حتى مقابل أجر!.. وإذا ضاجع اليهودى امرأة غير يهودية، يجب قتلها، كما هى الحال بالنسبة للبهيمة، لأن اليهودى يتعرض للمشاكل بسببها!.. ولأن جميع غير اليهوديات عاهرات!!.. ولا يجوز النصب على اليهودى.. لكن ذلك لا ينطبق على غير اليهودى!.. ولا يجوز السماح ببقاء وثنى واحد (غير يهودى) ساكناً بين اليهود، حتى ولو كانت إقامته مؤقتة، أو كان تاجراً جوالاً!.. لأنه مكتوب (فى سفر الخروج): «لن يسكنوا أرضك..»!.. وينبغى أن يتلفظ اليهودى باللعنات إذا مر بجوار مقبرة غير يهودية، بينما يتلفظ بالتبريكات إذا مر بجوار مقبرة يهودية!.. فكل غير اليهود مخلوقات شيطانية، ليس بداخلها أى شىء جيد على الإطلاق، حتى الجنين غير اليهودى يختلف نوعيّا عن الجنين اليهودى، كما أن وجود غير اليهودى مسألة غير جوهرية فى الكون، فقد تشاكل الخلق من أجل اليهود فقط! والمرأة اليهودية العائدة من حمامها الطقسى الشهرى من أجل الطهارة، يجب أن تحاذر ملاقاة أربعة كائنات شيطانية: أحد الأغيار، أو خنزير، أو كلب، أو حمار!.. وإذا حدث وقابلت أحدهم يجب أن تعيد الاستحمام مرة ثانية»[15]!!..

أين جهابذة العلمانية وتاريخية النصوص الدينية من هذا الخطاب الدينى، الذى يجعل العنصر اليهودى فعالاً لما يريد.. ومقدساً

معصوماً لا يُسأل عما يفعل في سائر خلق الله؟! . . ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ (آل عمران: ٧٥). ولماذا هذا الصمت المطبق عن هذا الخطاب الدينى الذى يقطر عنصرية ودموية، والذى يوضع اليوم فى الممارسة والتطبيق؟!.

لقد صدقت الحكمة الشعبية: «من يأكل عيش الخواجة يضرب بسيفه»: . . وصدق شاعرنا القديم عندما قال:

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل المال أعناق «الرجال»!

ولا حول ولا قوة إلا بالله! . .

* * *

وأخيرا

فإن عاقلاً لا ينكر حاجة خطابنا الديني الإسلامي إلى التجديد.. لكنه التجديد الذي حدده علماؤنا لمعنى التجديد.. وليس «التبديد» الأمريكاني، الذي يدعو إليه الحداثيون والعلمانيون..

إن الجامعات الإسلامية التي تخرج الدعاة - والتي هبط مستواها مع هبوط مستويات كل مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام - تحتاج إلى وقفة جادة، لتعود إلى المستوى الذي يضمن تخريج الدعاة الذين يستطيعون مواجهة التحديات الشرسة التي تواجه الإسلام والمسلمين.

وإن هذه الجامعات في حاجة إلى أن تدرّس أعمال الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي والمراغي ومصطفى عبد الرازق وعبد المجيد سليم والخضر حسين وشلتوت والطاهر بن عاشور والسنهوري وعلال الفاسي والشيخ الغزالي - وغيرهم من أعلام الإحياء والتجديد - بدلاً من تدريس «المذكرات الهابطة» و«الكتب السطحية» التي غدت وسيلة «للارتزاق»!..

وهذه الجامعات في حاجة إلى إحياء نهج العقلانية الإسلامية

المؤمنة، الجامعة ـ فى الخطاب الدينى ـ بين العقل والنقل والتجربة والوجدان. . والتى تفقه بها الواقع والأحكام لنعقد القران بين فقهيهما. . والتى نقرأ بها كتاب الله المسطور وكتابه المنظور ـ الوحى. . والكون ـ فبذلك، وبذلك وحده، نقطع الطريق على الجمود والتقليد فى خطابنا الدينى. . وعلى التغريب والعلمنة لخطابنا الدينى. . فبالتجديد الإسلامى، لا بالتبديد الأمريكانى، يكون التقويم لما فى فكرنا وخطابنا من اعوجاج.

* * *

الهوامش:

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ٣ ص ٣١٤ دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة ط القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) الأفغاني (الأعمال الكاملة) ص ١٩٥ـ١٩٦. دراسة وتحقيق. د. محمد عمارة. ط القاهرة سنة ١٩٦٨م.

(٣) الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص ١٠ ط القاهرة ١٩٠٧م.

(٤) ابن القيم (إعلام الموقعين) جـ١ ص ٢٩ـ٣٣، ٧٦، ٧٧، ٧٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٥) انظر في تفصيل ذلك، وتوثيق هذه النصوص وغيرها كتابنا (في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام) ص ٩١ـ١٠٢ ط القاهرة سنة ٢٠٠٣م. وصحيفة (الحياة) لندن في ١٧ـ١٠ـ٢٠٠٣. وصحيفة (الأهرام) القاهرة في ١٨ـ١٠ـ٢٠٠٣م.

(٦) هاشم صالح. صحيفة (الشرق الأوسط) لندن في ١٣ـ١٢ـ٢٠٠١م.

(٧) د. نصر حامد أبو زيد "الإسلام والغرب: حرب الكراهية" مجلة (وجهات نظر) القاهرة في يناير سنة ٢٠٠٢م.

(٨) د. نصر حامد أبو زيد "مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق" مجلة (القاهرة) في أكتوبر سنة ١٩٩٢م. و(نقد الخطاب الديني) ص ٨٣، ٢٨، ٢٩ ط القاهرة سنة ١٩٩٢م. و"إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني" مجلة القاهرة "في يناير سنة ١٩٩٣م.

(٩) د. نصر حامد أبو زيد (مفهوم النص. دراسة في علوم القرآن) ص ٢٤، ٢٧، ٢٨ ط القاهرة سنة ١٩٩٠م.

(١٠) المرجع السابق. ص ٦٩، ٥٦، ٥٩، ٣٨.

(١١) (نقد الخطاب الديني) ص. ١٧٤. ١٧٩.

(١٢) د. نصر حامد أبو زيد (الخطاب والتأويل) ص١٣٥، ١٣٦. طبعة المركز الثقافي العربي بالمغرب سنة ٢٠٠٠م.

(١٣) جوتفرايد كونزلن (مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا) (شهادة ألمانية) ص ٢٥ـ٣٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.

(١٤) أحمد عبد المعطي حجازي ـ من حوار مع (أخبار الكتاب) التي تصدر عن اتحاد كتاب مصر ـ عدد ٣٧ ـ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م.

(١٥) إسرائيل شاحاك (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) ص٤٠ ومابعدها ترجمة حسن خضر. ط القاهرة سنة ١٩٩٤م.

* * *

منشورات مكتبة الشروق الدولية
للدكتور محمد عمارة

- الإسلام والآخر.
- فى المسألة القبطية.
- الإسلام والأقليات.
- فى فقة المواجهة بين الغرب والإسلام.
- مستقبلنا بين التجديد الإسلامى والحداثة الغربية.
- الغرب والإسلام.
- مقالات فى الغلو الدينى واللادينى.
- الخطاب الدينى بين التجديد الإسلامى والتبديد الأمريكانى.



الفهرس

رقم الإيداع ٢١٧٣/ ٢٠٠٤

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-1042-2

• إن خطابنا الديني إنما يتجدد بالوسطية الإسلامية الجامعة لآيات «الوحي» و«آيات الكون» وللعقل والنقل والتجربة والوجدان ولفقه «الواقع» مع فقه «الأحكام».

• وبهذه الوسطية يتصدى خطابنا الديني للجمود وللعلمانية والتغريب جميعًا.

• أما ما تريده أمريكا والغرب لخطابنا الديني، فهو عين التبديد، الذي لا علاقة له بأي لون من ألوان «التجديد» إنهم يريدون إسلامًا أمريكانيًا علمانيًا يقف عند الشعائر والعبادات، وفقه دورات المياه تاركًا دنيا المسلمين للقيصر الأمريكي، وشركاته المتعددة الجنسيات.

• وبواسطة «العملاء الحضاريين» تُكتب الأبحاث، وتُعقد المؤتمرات الممولة من الغرب لتطويع خطابنا الديني للهيمنة الأمريكية والعنصرية الصهيونية ولتفريغ تعليمنا الديني من قيم العزة والمقاومة والجهاد.

• وللتمييز بين «الطيب» و«الخبيث» بين «التجديد» و«التبديد»، يصدر هذا الكتاب، الذي يقدم «الوعي» بحقائق هذه المعركة القائمة على قدم وساق !.

